محمد الفيتوري

التجربة الرومانسية في التغني بافريقيا

بقلم أنيس الباع

ليس ثمة شك في ان تطورا كبيرا وتغيرا جذريا قد حدث للفن بجميع صوره واشكاله وتعبيراته . وقد ارتبط هذا التغيير بالدرجة الاولى بحركة تطور المجتمع . فبعد ان كان الفن تعبيرا عن قيم المجتمع العبودي الاول اصبح انعكاسا للصراع الدائر بين مختلف القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واصبح كذلك اكثر ارتباطا بكل الجزئيات الصغيرة لواقع الانسان الحياتي واكثر تعبيرا عنها .

والشعر ـ كاحد الفنون التي مارسها الانسان منذ عصور الحضارة الاولى يعتبر من اهم تلك الفنون التي عبرت عن حركة المجتمع وصراعاته وتفاعلاته . وكان التعبير الشعري اكثر اتصالا ـ بما له من موسيقى وقدرة على النفاذ الى الوجدان الفردي والجماعي ـ بحياة الجماهير. ومن ثم فانه لا يمكننا ان نغفل الدور الذي قام به الشعراء في الدفاع عن قضايا الانسان المصيرية وفي تعميق هذه القضايا واثرائها . ولست احاول هنا ان اؤرخ لحركة الشعر ولكني اردت ان اشير فقط الى ان للشعر دورا هاما ـ ان لم يكن في التعبير عن قضايا الناس ـ ففي رصد المشكلات والتجارب الانسانية الفردية التي تتولد اساسا من الظروف المجتمعية .

فالى اي حد استطاع الشعر العربي ان يتبنى هذا المفهوم ؟ وما هي اهم الاتجاهات البارزة فيه ؟

الواقع ان حركة الشعر العربي المعاصر قد تمخضت اخيرا عن وجود بعض التيارات والاتجاهات الفنية . ولقد حاول احد النقاد (١) بلورة هذه الاتجاهات في مدارس ثلاث : مدرسة الكلاسيكية المرتدة ، ومدرسة المنزع العالمي الجديد ، ومدرسة الفن القومي وقال ان الفن القومي هو الانعكاس الحي للرؤى التي تسبح في وجدان مجتمع ما في لحظات سيكولوجية معينة .

ومحاولة تقسيم الحركة الشعرية الى مدارس ثلاث لم يكتب لها النجاح لانها لم تكن استقراء لما تمخضت عنه دراسة نماذج متباينة من الشعر العربي . ثم ان الناقد لم يحاول تأكيد دراسته بدراسات اخرى متتابعة . الا ان ما يلفت النظر في هذه المحاولة انفراد الفن القومي بمدرسة مستقلة من مدارس الشعر العربي . وذلك ان هناك بعض الدلائل على وجود نماذج من الشعر القومي وان كانت هذه النماذج لم تكون بعد مدرسة لها سماتها الخاصة .

والفيتوري ـ موضوع دراستنا ـ احد الشعراء القوميين واحد الذين عبروا عن قضايا مجتمعهم بكل حرارة وصدق . وان كان قد انزوى بعيدا عن الاضواء بعد صدور ديوانه الاول « اغاني افريقيا » حتى ان بعض النقاد قالوا ان الفيتوري قد نضب شعره بعد ان عبر عن ازمته الذاتية تلك الازمة التي تولدت اساسا من لون بشرته الاسود والتي كانت قصائد ديوانه الاول صدى لها .

الا ان صدور الديوان الثاني للشاعر « عاشق من افريقيا » قد خيب ظنون الذين تحاملوا عليه اكثر مما يجب . ان صدور هذا الديوان يحمل دلالات عميقة وهي ان (رحلته الشعرية الفريدة) (٢) لم تتوقف وان وجدانه ما زال ينبض وتجربته تزداد تكثفا وعمقا على مر الايام .. وانه قد استطاع فعلا ان يستفيد من رحلة السنوات التسع بين صدور ديوانيه الاول والثاني .

وحتى يتسنى لنا اختبار ذلك لا بد من القيام بمحاولة لرصد هذه الرحلة الشعرية . وهي ليست محاولة لتقييم الشاعر بقدر ما هي محاولة لفهمه ومدى تطوره من خلال تجربته كشاعر قومي . وربما يقودنا هذا الى ان نتساءل : هل الفيتوري شاعر ذو قضية ؟ وكيف استطاع التعبير عنها ؟

والواقع ان الفيتوري شاعر يدافع عن قضية . وافريقيا هي قضيته . ولكن ثمة فرق في ان نقول ان الشاعر ذو قضية وان نقول انه تصدى للدفاع عن قضية ما. فالشاعر ذو القضية هو الذي يحمل كل ابعاد ومسافات التجربة ، يذيبها في وجدانه واعماقه ، ويعبر عنها متخذا لنفسه موقفا ازاءها ، موقفا يبرز مدى وعيه لكل الجزئيات الصغيرة التي تتمخض عنها تلك التجربة داخل نفسه وخارجها على ان يكون هناك خط رأسي يبدأ من اسفل تتكثف حوله كل جزئيات التجربة التي تعمق قضية الشاعر وتثريها .

ومن هذا الفهم سوف تكون محاولتنا في رصد معالم رحلة الشاعر محاولين في النهاية الاجابة على سؤالنا الذي طرحناه للمناقشة .

في بداية الرحلة يحس الشاعر بالمأساة والضياع . مأساته كانسان افريقي اسود البشرة . مأساته الذاتية التي تنطلق منها بعد ذلك مأساة بلاده . فهو يشعر بالحزن والفجيعة والدمامة وعدم الانتماء وكأن وجهه الاسود يحول بينه وبين انسانيته (٣) .

دميم . فوجه كأني به
دخان تكثف ثم التحم
وعيناي فيه كأرجوحتين
مثقلتين بريح الالم
وانف تحدر ثم ارتمى
فبان كمقبرة لم تتم

وترتبط مأساة الشاعر بالرومانسية في التعبير وبالاغراق الشديد في الحزن والتعلق بالاوهام ، وكأن الشاعر يحاول ان يهرب بها من واقعه القاسي المرير . ولم يتخذ الشاعر من الرومانسية مذهبا له بقدر ما كانت مرحلة ضرورية في بداية تجربته الفنية :

يا ليتني فراش نحل
جناحاه على هيكله شعلتان

(١) زكريا الحجاوي ، في مقدمته لديوان « اغاني افريقيا » للفيتوري.

(٢) هذا التعبير منقول عن الاستاذ محمود امين العالم في دراسته لديوان اغاني افريقيا .

(٣) محمود امين العالم في مقدمته لديوان اغاني افريقيا .

يعيش في منعطفات الشذى
فوق حدود الوهم .. فوق الزمان
...
يا ليت قلبي قلبه .. ويدي جناحه
وموطني اللامكان ..

وفي قصيدة اخرى يقول :

الليل ..
في كل ليل
يدوس فوق شعوري
جنازة تدفن الحزن
في قبور السرور
سحابة تمطر الموت
فوق روض نضير
وجه اله غريب
معذب ... مقهور ..

وتتكشف الاحزان في اعماق الشاعر حتى يكاد يصرخ في سذاجة :

...
اذن فاسمعي .... انني سأغني
سأعزف لحن الجناز الكبير ..
فقد آن لي ان اهز الحياة بحزني
بكل مراثي القبور

***

وتسيطر الرومانسية على كثير من قصائد الشاعر .. حتى يحس القارىء في بعض الاحيان بأن التعبير الرومانسي فيه انفعال مبالغ فيه لا تتحمله تجربة الشاعر ..

الا انه ـ وبرغم هذه الاصفاد التي تكاد ان تغرق الشاعر ـ ما يلبث ان يتحسس معالم الطريق وجوانب القضية ، قضية افريقيا التي ما تزال نائمة في حضن حلمها الاسود العجوز الضائع ..

افريقيا
افريقيا استيقظي
استيقظي من حلمك الاسود
قد طالما نمت ... الم تسأمي ؟
الم تملي قدم السيد ؟!
...
قد طالما استلقيت تحت الدجى
مجهدة .. في كوخك المجهد
مصفرة الاشواق ..
تبني بكفيها ظلام الغد

فافريقيا عريانة الماضي والحاضر تائهة الاشواق . غير ان الشاعر يصرخ فيها ان تستيقظ ، ان تنطلق ، فلقد اتى دور الذين يصنعون الامل والمستقبل :

اجل ..
فانا قد اتى دورنا
افريقيا
انا اتى دورنا

ويستيقظ الشاعر من حلمه الاسود وتستيقظ معه افريقيا .. فلقد مزق الشاعر اكفان نفسه الحزينة اليائسة . مزق ستائر الظلام الكثيفة التي كانت تعرقل خطاه الصاعدة :

انني مزقت اكفان الدجى
انني هدمت جدران الوهن
لم اعد مقبرة تحكي البلى
لم اعد ساقية تبكي الدمن

وحتى تستمع الملايين له ، وحتى تتحرك نحو صنع الغد ، لا بد ان تستيقظ اولا وان تطهر نفوسها الحزينة ، فالحرية لا تنطلق اساسا الا من مجتمع صحيح :

فاستمع لي .. استمع لي
انما اذن الجيفة صماء الاذن

ولعل تكرار « استمع لي » وتكرار « الاذن » يعمق معنى الشاعر ويؤكده . فالتكرار هنا له وظيفته ومدلوله وتوشك جدران الظلمة ان تتداعى وتسقط . ويبزغ فجر افريقيا عملاقا مشرفا « عاري الصدر » :

الفجر يدك جدار الظلمة
فاسمع الحان النصر
ها هي ذي الظلمة تتداعى
تساقط .. تهوي في ذعر
ها هو ذا شعبي ينهض من اغماءته
عاري الصدر

***

ومع هذه الرحلة البطولية نستطيع ان نلمس مدى وعي الشاعر بقضيته ، ومدى قدرته في التعبير عنها ، فهو قد غنى لافريقيا اغاني الكفاح والثورة والحرية .. وتنطلق الثورة الافريقية الكبرى . ثورة ملايين العرايا والمضطهدين وتندك حصون الطغاة والقتلة .

***

هذه هي معالم البداية لرحلة الشاعر .. ولعل من الجدير ان نقف قليلا عند هذه البداية لنسجل بعض انطباعاتنا ، ولننظر كيف استطاع الفيتوري ان يجناز دروب مشواره الطويل ؟ والانطباع الاول يتركز في قدرة الشاعر على تصوير نماذجه البائسة الكادحة وقدرته على اثارة شعورنا نحو التعاطف مع مشكلات الانسان الافريقي بل مع قضايا افريقيا ذاتها . ولم يصبح هذا الشعور مجرد عطف ولكنه تعاطف واع مع تلك القضايا .

وثمة انطباع هام لا بد ان تتركه مراجعة الديوان الاول للشاعر. فالقضية العنصرية كانت بارزة اكثر مما يجب . وضاعت افريقيا ـ في بعض الاحيان في كابوس اسود ثقيل .. فقد كان السواد يلون كثيرا من الكلمات « الحلم الاسود ، الجبهة السوداء ، الطفل الاسود ، انا زنجي ، الطوفان الاسود ، حرية السود ، روحه السودة ، الايدي السوداء ، كتل السود ، الشجر الاسود ، شطآنها السوداء ، الحوائط السوداء ، اللظى الاسود ، ... الخ.

واذا كان اللون الاسود يرمز عند الشاعر للانسان الافريقي فهو يرمز ايضا للرؤيا الضبابية التي تغلف نظرته للواقع ... واقعه الذاتي وواقع افريقيا ذاتها . وقد يكون اللون الاسود الذي يعكس ثورية الشاعر ورفضه للظروف التي تخنق واقعه ـ بعض الدلالات الفنية ... الا ان اللون الاسود اصبح نغمة عند الشاعر (٤) . او بمعنى اخر فان موقفه الفلسفي من الثورية التي تلاحظ بوضوح في معظم قصائده ـ والتي ترمز لها « الكلمات السوداء » التي تفرش الطريق امام كثير من تجارب الشاعر ـ لم يكن موقفا محددا . او بمعنى اصح فانه لم يأخذ موقفا يمكن تفسيره او مناقشته من الثورية التي تنعكس على قصائده . وثمة انطباع اخر يتجلى في النثرية والخطابة والسطحية التي تعتبر آفة كثير من شعراء اليوم .. وقد تكون هناك بعض المبررات لهذه الخطابة وذلك لنوع التجربة التي يخوضها الشاعر والتي قد يستلزم التعبير عنها بعض الحماس خصوصا واننا سبق ان قلنا ان الفيتوري شاعر قومي . وهو كشاعر قومي يخضع لنوع من الالتزام . الا ان الالتزام نفسه قد لا يكون مبررا مقنعا عندما نقرأ للشاعر :

لقد عدنا من الحرب الى الحقل ... الى المصنع
لكي نحرث ، كي نبذر ، كي نحصد ، كي نجمع
لكي نبني للغير .... لكي نطهو ولا نشبع
لكي نصنع حربا ضخمة اخرى ... لكي نصنع

---

(٤) محيي الدين محمد ـ حزن الاحزان في الفارس القديم ، ص ٢٢. مجلة الثقافة ، العدد ٥٧ .

ونلاحظ ان تكرار « لكي نصنع » في نهاية البيت الاخير انما يؤكد مدى التزام الشاعر بالشكل والموسيقى الصاخبة التي تؤذي الاذن احيانا .

هناك انطباع اخير على هذه المرحلة من مراحل النمو الفني للشاعر . وهو انطباع يسجل للشاعر تفوقه ومهارته في صياغة الكلمات التي تعبر عن تجربته في اتفاق بديع ، وقدرته على التعبير عن اللحظات النفسية العميقة ووصف الجزئيات الصغيرة للواقع المادي .

واني لاعتب على الاستاذ مصطفى السحرتي ان اغفل ذكر الفيتوري عندما تعرض للكتابة في احدى مقالاته (٥) عن مجموعة من الشعراء الذين تفننوا في الوصف والتصوير .

يقول الشاعر في قصيدته « السفر » :

الباب .. والسور .. ولون الحائط السقيم
ودرجات السلم المتسخ القديم
واوجه النوافذ الباهتة المرسوم
تطل منها اعين بادية الهموم

ثم يتحدث عن الساحة العجوز التي تنوء تحت ثقل الحياة ،وعربات الخدم ، وصرخات الباعة :

والناس كلما مضت صرخة القطار
تصرخ في وجوههم بغربة الديار
تهدمت من فوقهم جوانب النهار
وزلفت ارجلهم على بساط نار

...

وجرت الاعين في الوجوه كالاكر
واثقلت كل يد حقيبة السفر
فكم فم على فم هنالك انتحر
ودمعة واقفة كأنها حجر

...

وكانت الساعة في الجدار تنتظر
حين مضى بندولها يهتز في ضجر
كأنه صاعقة في ساعة القدر
كأنه يضرب في بناية البشر

ولعل هذه القصيدة وقصيدة « تحت الامطار » التي يقول فيها الشاعر :

ايها السائق ... رفقا بالخيول المتعبه
قف .. فقد ادمى حديد السرج لحم الرقبه
قف .. فان الدرب في ناظرة الخيل اشتبه
هكذا كان يفنى الموت حول العربه
وهي تهوي تحت امطار الدجى مضطربه

...

غير ان السائق الاسود ذا الوجه النحيل
جذب المعطف في بأس .. على الوجه العليل
ورمى الدرب بما يشبه انوار الافول
ثم غنى سوطه الباكي .. على ظهر الخيول ..
فتلوت .. وتهاوت .. ثم سارت في ذهول

يؤكد اننا لا يمكننا ان نرفض تماما الشكل العمودي في بناء القصيدة العربية ... وان هذا الشكل يصلح للتعبير عن كثير من التجارب لو توفر للشاعر فقط اختيار السلم الهارموني المناسب للتعبير عن تجربته .

وهاتان القصيدتان ـ تستحقان منا دراسة مستقلة . فقد اثبت الفيتوري قدرة الشعر المقفى الفائقة على الوصف والتصوير والتركيز في التعبير واستخدام الالفاظ الموحية استخداما فنيا دقيقا . ولم يقف الشاعر عند هذا الوصف الموضوعي (٦) بل كشف لنا عن مشاعر استيائه او بمعنى اخر فانه تعدى مرحلة الوصف الموضوعي الى مرحلة مزج فيها مشاعره وحدد موقفه الفلسفي وتعاطف مع القيم الانسانية التي تبزغ من خلال رسمه للوحة الفنية .

الا ان هاتين القصيدتين تثيران كثيرا من التساؤل في نفوسنا،فهما بعيدتان تماما عن قضية الشاعر الاساسية .. وهما اكثر جودة من كثير من القصائد التي تحدث فيها عن افريقيا .. ولا نملك هنا الا ان نسجل احتجاجا وعلامة استفهام كبيرة لشاعرنا .

قلنا ان الفيتوري شاعر قومي ، وافريقيا هي وطنه الاكبر،ماضيه وحاضره وغده ومن اجل هذا الوطن كتب وغنى .. وقلنا ايضا في بداية هذه الدراسة انه قبل صدور الديوان الثاني للشاعر قال بعض النقاد ان الفيتوري قد نضب شعره لانه كان صدى لازمته الذاتية التي لم تفرش لها طريقا في ارض الواقع الخصبة .

الا ان مراجعة الديوان الثاني للشاعر « عاشق من افريقيا » تكشف لنا عن جوهره الاصيل وعن روح النضال التي تتجدد في اعماقه ووجدانه فهو ما زال يغني لافريقيا :

لم تمت في اغاني ، فما زلت اغني
لك يا ارض انفعالاتي ،وحزني
للملايين التي تنقش في الصخر ، وتبني
والتي ما فتئت تبدع فني
والتي تعرف اني ..
انا منها .. وهي مني ..

فلم ينفصل الشاعر عن واقعه ولكنه اصبح اكثر قربا منه . فقد مزج بين ذاته الفنانة وبين اعماق تجربته وهذا المزج لم يجعل الشاعر يفقد رؤيته الواعية للواقع ، بل استطاع ان يعمق هذه الرؤيا وان يكتشف الدروب التي ما تزال مظلمة قاتمة ، وعرف ان عليه مواصلة رحلته الطويلة :

لم تمت في اغاني
وفي صدرك كلمة
لم تقلها شفتاي
وعلى وجهك غيمة
لم تمزقها يداي
انت يا من تهبين الشمس
في كل صباح وعشية
من دماي
لتنيري خطوات البشريه
بخطاي

ولم تعد الحرية قضية عنصرية كما كان ذلك واضحا خلال تجارب الشاعر الاولى . ولكنها اصبحت قضية المصلوبين والقتلى في كل مكان . فالشاعر يفتح وجدانه على العالم كله عندما يكتب :

اكتب يا جبار الاحزان
اكتب باسم جلال الانسان
باسم وجوه خلف القضبان
وجوه لم تعرفها بعد
باسم القتلى في كل مكان

وتزداد الرؤيا وضوحا امام الشاعر فيقف على الاسباب الحقيقية لقضايا الحرية (ان الثورات تموت وتولد في الانسان) وقد كان من الممكن ان يقول الشاعر « ان الثورات تموت وتولد بالانسان » ولكن استخدام حرف الجر ـ في ـ غير المعنى كله واضفى عليه وعي الشاعر.. فالثورة يجب ان تنطلق اساسا في الانسان . فالانسان الثوري هو القادر وحده على القيام بالثورة .

وعمق التجربة ومدى ارتباط الشاعر واحساسه بها يفرضان غزارة

(٥) مصطفى السحرتي ـ شعر اليوم ، الرسالة ، العدد ٥٥ .

(٦) مصطفى السحرتي ـ المقال السابق .

التجربة الرومانسية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣١ ـ

على التعبير الشعري نفسه بحيث يصبح هذا التعبير ذا ابعاد ودلالات تنسجم مع موقف الشاعر الفلسفي من التجربة ذاتها . ومن هذه البؤرة يمكن فهم المحتوى الداخلي للعمل الفني بصفة عامة .

ولعل من مظاهر التعبير الجيد استخدام الرمز والايماءات الصغيرة وغيرها من وسائل التعبير . ويجب ان يكون هناك نوع من الحذر عند التصدي لدراسة بعض النماذج الشعرية التي تستخدم التعبير الرمزي حتى لا نحمل النموذج الشعري الذي نقوم بدراسته الوانا معينة من التفسير فوق طاقته ، كما فعل الدكتور لويس عوض في بعض دراساته عن الشاعر صلاح عبد الصبور والاستاذ نجيب محفوظ لانه لا يمكن ان نحيل العمل الفني الى مجموعة من الرموز وعلى الدارس ان يفك طلاسمه ... ففي تصوري ـ خصوصا عندما نتعرض لدراسة الشعر ـ ان مهمة الناقد او الدارس هي القاء بعض الضوء على الرؤيا الخلفية للعمل الفني ـ ورؤية الشاعر من خلال هذا العمل ـ لجوهر العلاقة او القضية او الموضوع الذي يعبر عنه . على انه لا يجب ان يكون هذا الضوء مبهرا بحيث نحرم القارىء من تشوقه لاستنباط واستكشاف المحتوى الداخلي بنفسه . ومن ناحية اخرى فقد نشعر اننا قد قمنا بعملية تعرية غير مطلوبة ـ لكل جزئيات العمل الفني قد لا تكون بنفس الدرجة التي ارادها الشاعر لتجربته .. ومن ثم فاننا نستطيع ان نلقي اكثر من تفسير لنموذج فني واحد . وفي بعض الحالات نجد ان الشاعر نفسه ربما قصد الى ذلك..

وثمة كثير من القصائد استخدم فيها الفيتوري الرمز .. والرمز عند الفيتوري ليس رمزا في كل جزيئة من جزيئات العمل الفني ..انه يستخدم رمزا واحدا ـ في اكثر الاحيان ـ لتتكشف حوله جزيئات التجربة . كما فعل صلاح عبد الصبور في قصيدته التي تحدث فيها عن الحب واستخدم « الطفل » رمزا لحبه الاول ...

والفيتوري ايضا يستخدم الرمز في الكتابة عن افريقيا (افريقيا عند الشاعر مجموعة كبيرة من التجارب التي تتكشف داخلها رؤيته لقضايا الحرية والاستقلال وعذاب الانسان الافريقي) وهو يتحدث عنها كما يتحدث الى امرأة جميلة .. كما يتحدث عن فتاة ربط بها مصيره . يقول في قصيدته « عصر الميلاد » :

وتطلعت الى عينيك والشعر سلاحي
عاري الجبهه ، كالفجر مغطى بجراحي
اتلقى عنك اعداءك .. اعداء كفاحي
الذين اغتصبوا عرضك مره
حملوا عارك زهره

وفي قصيدة « ليلة السبت الحزين » يقول :

الليله .. الليله يا حبيبتي
كانت مع السحب عيوني
وانا خلف جداري جثة يسجنها جدار
اكبر مما تبعرين انت يا حزينة العينين
حالك الظلمه .. حالك النهار
يدفننا .. يحفر قبرنا في كل يوم مرتين
ونحن بعض جثتين
ليس على وجهيهما الا ابتسامة احتقار
وشهقة احتضار

الليلة الدموع .. الليلة الندم
مليون زهرة تسحقها قدم
وجه قتيل يبتسم
شمس نحيص دم

وفي قصيدة أخرى يقول :

تمنيت .. لو لم تقم بيننا كل هذي السدود
ولو كنت يا ابعد الناس عن مقلتيا
ويا اقرب الناس مني اليا
تمنيت .. لو كنت بين يديا

تمنيت يا اجمل الفانيات جمالا
اذا خجلت مقلتاك
او التهبت وجنتاك اشتعالا
ويا اعظم الفاتنات نقاء
وارفعهن سماء
وابعدهن منالا

تمنيت لو كنت انت معي الان
انت معي .. انت
انت بعينيك .. صوتك .. شعرك
هذا الدجى المخصب المبدع
امرغ في حقله الاستوائي
في موجة الشفقي الشقائي
امرغ في لحظة كبريائي
واشرب من ادمعي
وتجتاح روحي اجراس فجرك
فاسقط في موضعي
ويغمى علي
وتأخذني غفوة فوق صدرك

واستخدام المرأة كمعادل رمزي لقضية الشاعر ـ اذ ان المرأة بما تصف به من جمال وعذوبة وبما يمكن ان توصف به علاقتها بالرجل من مظاهر العمق ـ يصبح من اغزر وسائل التعبير . وانا اميل الى تفسير هذه القصائد تفسيرا يعتمد على هذا المفهوم ـ على عكس ما قد يفسرها البعض ـ حتى ولو كان الشاعر نفسه ـ وذلك لان الشاعر قد عبر عن تجربته بثورية وانفعال لا يتناسب مع ثورية التعبير عن التجارب التي تنبع من علاقة المرأة بالرجل . ثم ان تفسيرها على هذا النحو انما يثري ويعمق ابعادقضية الشاعر . وليس ثمة ـ عندما تتعرض لرصد موضوعي لكل هذه النماذج الشعرية ما يجعلنا نتراجع عن هذا التفسير .

ومن نفس هذا المنطلق التعبيري بدأ الشاعر يعبر عن تجاربه مازجا بين احساسه النفسي وبين العالم الخارجي .

واثناء سير الشاعر منطلقا عبر دروب رحلته الشعرية يشعر بالعجز ـ احيانا ـ عن صنع حاضره وحاضر قضيته بالكلمات .. وليس هذا دليلا على تخلي الشاعر عنها ولكنه الصدق الفني في التعبير وفي ابراز مشاعره الحبيسة :

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب

واحس بشيء مصلوب
ينزع اطرافي المصلوبه
يا احزاني
اني احمل كل خطيئة عصري

وازاء احساس الشاعر المر بانه يحمل خطيئة عصره جميعهـــا تتعثر الكلمات على شفتيه ولا يتفوه بها لان الله ـ رمز الحرية سجـين على الارض :

لا شيء لكي اكتب كلمه
فالكلمة في شفة الله
والله على الارض سجين

وعندما يحمل الشاعر الخطيئة ويرى ان الحرية مصلوبة يحس باللامبالاة .. بالعذاب :

الدين عذاب
الفن عذاب
الصمت عذاب

واذا كان الدين والفن والصمت جذور العذاب والمأساة فان هـذا العذاب لم يصبح نغمة عند الشاعر .. لانه مجرد بلورة لاحساسه عندما تلتوي به الدروب . وربما يدفعنا هذا لان نقف قليلا مع ذات الشاعر ومع تجاربه الوجدانية .

لقد استطاع الفيتوري أن يكشف كل تجاربه الفنية في بعـض قصائده الوجدانية ... وربما تجتمع كل خطوط النجاح الفني في قصيدته الجيدة « الى عينين غريبتين » التي يقول فيها :

سيدتي
لو لامست عينيك هذي الكلمات العاشقات
صدفة .. لو عبرت خلال الشفتين
فاعتذري عني لعينيك
لانني اتكأت في ظلها ذات مساء
سرقت غفوه
داعبت في سكونها النجوم والقمر
نسجت زورقا خرافيا ، من ورق الزهر
وسدت روحا متعبا
سقيت شفة لاهثه ..

ثم يقول ...

لو التقينا فجأة ..
لو ابصرت عيناي تلكم العينين
الافقين الاخضرين الغارقين في الضباب والمطر
لو جمعتنا صدفة اخرى على الطريق
وكل صدفة قدر
فسوف الثم الطريق مرتين

في هذه القصيدة نحس بمدى صدق الشاعر في التعبير عن مشاعره .. من خلال الموسيقى الخافقة التي تنساب بين الكلمات في عذوبة ، ومـن خلال الافكار التي تتسلل في سهولة وبلا افتعال . وهذا يجعلها فـي مطلع قصائد الفيتوري الوجدانية .

وللفيتوري نماذج اخرى في الشعر الوجداني لعل من اهم سماتها المزج بين التجارب الوجدانية والافكار الثورية . فالدارس لهذه النماذج يحس بنفس حرارة التعبير عندما يعبر الشاعر عن تجاربه الثورية .

تتبقى لنا بعد ذلك بعض الملاحظات العامة عن هذا الشاعر بعد ان استعرضنا بعض جوانب فنه الشعري .

فقد لاحظت تأثر الشاعر الواضح (بصلاح عبد الصبور) . لقـد حاول التعبير عن نفس المعنى الذي اصبح نغمة كثير من الشعراء . وهو التعبير عن بساطه الشاعر وفقره وهروب السلطة من يديه فلا سـلاح له سوى الكلمات . وفي نفس المعنى تقريبا كتب ايضا الشاعر احمـد حجـازي .

يقول الشاعر صلاح عبد الصبور :

... ما كنت ابا الطيب
ولم اوهب كهذا الفارس العملاق ان اقتنص المعنى
ولست انا الحكيم رهين محبسه بلا ارب
ولست انا الامير يعيش في قصر بحضن النيل
...
ولكني تعذبت لكي اعرف معنى الحرف ..

ويرى الدكتور لويس عوض (٧) ان صلاح عبد الصبور قـد اقتبس هذا المعنى من قصيدة ت.س. اليوت (اغنية العاشـق ج. الفريد بروك) .

اما الفيتوري فيقول في قصيدته « عاشق من افريقيا » :

صناعتي الكلام
سيفي قلمي
وكل ثروتي شعور ونغم
ولست واحدا من انبياء العصر
لست من فرسانه الذين يحملون رايات النضال

وفي نفس هذه القصيدة اقتبس الفيتوري من قصيدة اخـرى لصلاح عبد الصبور . يقول الشاعر :

صناعتي الكلام
لا وسام .. لا وشاح ..لا ذهب
لا راية تظلني .. ولا لقب

ويقول صلاح عبد الصبور :

اتيتك لا كبير النفس لا تياه
ولا في الكم جوهره
ولا في الصدر وشحت
ولكني انسان فقير الجيب والفطنه

وثمة ملاحظة اخرى تتعلق بالنثرية التي تنساب في كثير من القصائد .

وبجانب هذه النثرية نلاحظ ان الشاعر حاول ـ في بعض القصائد ـ ان يتصنع الحكمة والفلسفة في الوقت الذي لم يكن قادرا فنيا علـى خلق هذه الحكمة .. لانها ليست مجرد كلمات مرصوصة في اتسـاق وتنظيم . انما يجب ان تنطلق اساسا من التجربة التي يمارسها الشاعر بلا انفعال او زيف لانها محصلة عدة تجارب وليست التجارب نتاج لها .

يا لومومبا
ان الخونة لا ينتصرون
لا يصبح بطلا من خان قضية شعبه
من اسقط رايته يوم نضاله
من سد عليه طريق الحريه
من قبل اقدام القتله
ابدا .. ابدا .. يا لومومبا
لن يصبح « موبوتو » بطلا
حتى لو وضع الاغلال بكفيك

هذا هو نموذج واحد على النثرية والسطحية في التعبير . وربمـا كان (لومومبا) موضوعا ناجحا لبعض الشعراء ولكن الفيتوري ولا شـك قد احفق في الوصول الى ابعاد التجربة التي عاشها البطل الافريقي .

لقد لاحظت ان هذا المستوى في التعبير يحتضن جميع قصائـد الشاعر التي تحدث فيها عن بعض المكافحين الافريقيين مثل قصيـدة نكروما وقصيدة الى بن بيلا ورفاقه . وربما يدل هذا على ان الفيتـوري لم ينفعل بهذه الموضوعات وانما كتبها كما يكتب شعر المناسبات .

وهناك نماذج اخرى على النثرية ورمي الامثال والحكم بطريقـة ساذجة قد لا يتسع المجال هنا للحديث عنها ولكننا نكتفي بسرد بعـض الامثلة فقط :

لا تضعف

(٧) الدكتور لويس عوض ـ دراسات في الادب والنقد ، ص ١٨٤ .

ان الضعف يميت القلب
لا تسقط ....
لا تلق سلاحك
احرق في الظلمات وشاحك
...

وثمة ملاحظة ثالثة تتعلق بتطور فهم الشاعر للحرية .. فلم يعد التعبير عنها مجرد كلمات حماس ولكنه اصبح اكثر عمقا .. وفي مجال التعبير عن الحرية ركز الفيتوري على اهمية حرية الكلمة .. وهذا المفهوم تردد في كثير من قصائد الشاعر :

الساعة منتصف الليل
وعلى الدروب تنام الظلمه
انثى .. ساقان وجمجمه
ما زالت تتآكل غلمه
وصراخ اخرس .. اسمعه
يتحدر من اعلى القمه
وضحايا تتعذب مثلي
في شوق .. من اجل الكلمه

والملاحظة الاخيرة هي ان الشاعر وان كان قد تطور فنيا منذ صدور ديوانه الاول الا ان هناك بعض القصائد في ديوانه الاول اكثر جودة من بعض قصائد ديوانه الثاني مثل هذه الكلمات الرائعة التي قالها في « اغاني افريقيا » :

غدا يمر موكب الجوع بدربنا القذر
فاخضوضري يا سنوات القحط
وانزل يا مطر
واغرق حقول الارز والقمح
واغرق النهر
وامسح بكفك الرمادية احزان الشجر .. الخ.

قلنا ان الفيتوري استطاع ان يعبر بصدق وحرارة وفهم عن قضايا افريقيا وان يدرك بعمق مشكلاتها وان يعبر عن هذه المشكلات وتلك القضايا تعبيرا فنيا وانسانيا . فافريقيا وطن الشاعر .. هي ماضيه وحاضره ومستقبله . وهي ايضا وسادته التي يتكيء عليها في لحظات القوة والضعف ... وافريقيا شعب وقارة تنحت مصيرها الانساني في اصرار عجيب . وافريقيا ايضا قضية قبل ان تكون شعب او قارة .. ولقد عمق الفيتوري ابعاد هذه القضية واثراها وجاس خلالها ببطولة فشاعرنا هو احد الذين التزموا بقضيتهم حتى النهاية . ومن اجل ذلك اصدر ديوانين شعريين عن افريقيا .. وهذا في حد ذاته عمل رائع ..

وربما يقودنا ذلك للاجابة على سؤالنا الذي سبق ان طرحناه للمناقشة في بداية هذه الدراسة بان نقول ان الفيتوري شاعر ذو قضية وان كانت هناك دروب لم يطأها الشاعر كان من الممكن ان تعمق رؤيته لواقع قضيته ، وان كانت هناك ايضا بعض الاصفاد التي ما تزال تعرقل خطاه الشابة نحو استكمال كل مقومات وعناصر نجاحه الفني ونموه الفكري . الا انه مع ذلك قد برهن على شاعريته واصالته والتزامه بقضية جوهرية لم يتخل يوما ما عن تعميق دروبها الكثيرة . فشاعرنا الذي تفجرت اغانيه تنشد الحرية والخلاص والذي احب افريقيا وعشقها ، استطاع اخيرا ان يرى ضوء الفجر الذي يلوح عن قرب فوق غاباتها الاستوائية الكثيفة وجبالها الشاهقة التي تتحدى الزمن :

اصبح الصبح .. لنا خلفك يا صبح الحصاد
الف صبح قد نسجناه باضواء العيون
ايها القادم محمولا على سمر الايادي
يا حصاد العرق الدامي .. وميراث الجهاد
ايها التاج على جبهة شعبي .. وبلادي
آه ما اروعك اليوم .. على هذا الجبين

القاهرة — انيس احمد البياع

دار الاداب تقدم — الجزء الثاني من رائعة

قوة الاشياء

للكاتبة الوجودية العالمية
سيمون دو بوفوار

وفيه تواصل الكاتبة الفرنسية التي وصفت بانها اكبر اديبة وفيلسوفة في عصرنا الحديث مذكراتها الرائعة التي قرأها القراء العرب في « مذكرات فتاة عاقلة » و « انا وسارتر والحياة » والجزء الاول من « قوة الاشياء » . وهي تخصص فصولا برمتها عن احداث الجزائر وانعكاساتها على المثقفين الفرنسيين ، ولا سيما موقفها هي مع عدد من كبار الادباء في فرنسا وعلى رأسهم سارتر من « حرب الجزائر القذرة » وتأييدهم لنضال الشعب الجزائري ودفاعهم عن حقوقه ، وما لاقوا بسبب ذلك من اضطهاد في فرنسا وحرمان وتهديد بالقتل والاغتيال .

والى جانب ذلك فصول ممتعة عن رحلاتها وعلاقاتها بالادباء وتطور صلتها بشريك حياتها سارتر ، ويتخلل ذلك تأملات عميقة في الحياة والموت والمصير.

ترجمة عايدة مطرجي ادريس
مراجعة الدكتور سهيل ادريس

صدر حديثا — الثمن : ٦ ليرات لبنانية